مقدمة ابن خلدون

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

من الكتب العربية ذات المكانة فى الثقافة العالمية مقدمة ابن خلدون التى ألفت فى الربع الأخير من القرن الثامن الهجرى — أى من ستمائة سنة مضت — وتضمنت أصول علم جديد لم تكن أوربا قد عرفته بعد ، ذلك هو علم فلسفة التاريخ ، أما مؤلفها فهو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الإسلامى الشهير الذى نشأ فى بلاد المغرب ، من أصول وأعراق تحدرت من الجزيرة العربية ، وقضى معظم حياته بين العلم والسياسة ، فألف تاريخه الكبير ، وأعان سلاطين الدول المغربية بخبرته وتجاربه . وفى الثلث الاخير من حياته انتقل إلى مصر فأقام فى القاهرة مشتغلا بالتدريس والتأليف وتولى فيها قضاء المالكية ، وما زال بها حتى مات سنة ٨٠٨ من الهجرة .

ولهذا المؤلف مكانة خاصة عندنا نحن المصريين . فهو — إلى جانب الروابط الاسلامية والعربية والثقافية التى تربطنا به وتجعلنا نعتز بعبقريته وسبقه فى ميدان الكشف العلمى — رجل أحب مصر وأحبته وتمتع باحترام أهل العلم وطلابه من المصريين فى أيامه ، وتغنى بمحاسن مصر وعمرانها ومعارفها فى كتاب عرف فيه بنفسه وبحياته : فوصف القاهرة بأنها حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، وأن القصور والاواوين ، والخوانق والمدارس تختال بآفاقها وأن علماء يضيئون كالبدور والكواكب وأنها واقعة على شاطئ النيل يتعهدها بالرى ، ويفيض عليها بالثمرات والخيرات ، وأن سككها تموج بالمارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، وأنها بلغت شأوا بعيدا فى العمران واتساع الاحوال حتى كان علماء المغرب الذين يزورونها يقولون : «من لم ير القاهرة لم يعرف عز الاسلام» .

وإلى جانب هذه الوثيقة الخالدة التى سطرها قلم ابن خلدون عن وطننا مصر ، كان لكتابه « المقدمة » الذى نتحدث عنه اليوم أثر واضح فى ثقافتنا وتفكيرنا الحديث : فقد أخذت المقدمة مكانها بين كتب النهضة المصرية والعربية ومصادرهما منذ النصف

الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد تربى على أسلوبها كثير من كبار مفكرينا ومصلحينا وأفاد منها جماعة من مؤلفينا وباحثينا ، ووجد فيها كتاب السياسة والإجتماع والادب عندنا مادة لا تنفد عن العمران البشرى وأحواله .

وقد شغل بالمقدمة بعض باحثينا فقاموا بدراسات عليها باللغة العربية وباللغات الأجنبية ، وحرصت جامعاتنا أن تجعلها من مقروء الشباب فى مطالعاته العربية ، وأن توجه نظره إلى ما جمعت من حقائق الإجتماع ومن رصانة الاسلوب الكتابى .

نظر ابن خلدون فى علم التاريخ وفى المؤلفات التاريخية إلى أيامه ، فوجد أن لهذا العلم ظاهرا وباطنا : فهو من ظاهره مجرد تتبع أخبار الأيام والدول السابقة ، ولكنه فى باطنه نظر ، وتحقيق ، وتعليل . فالمؤرخ الذى يعتمد فى رواية أخباره على مجرد النقل — غير محتكم إلى قواعد السياسة ، وطبيعة العمران وأحوال الاجتماع — ليس مؤرخا بالمعنى العلمى الصحيح ، ولا يمكن أن يوثق بمادته ، وانما المؤرخ الحق من أحاط بطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع الأزمان ، والاخلاق والموائد والمذاهب ، ومن كان مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر .

وبعبارة أخرى لابد للروايات التاريخيه من قانون يميز حقها من باطلها ، وقد أغفل الأقدمون البحث عن هذا القانون ، ولكن ، ابن خلدون ، جد فى طلبه حتى أهتدى إليه من طريق النظر فى الاجتماع البشرى وتمييز ما يلحقه من الأحوال بمقتضى طبعه ، وما يلحقه من الاحوال العارضة التى لا يعتمد بها . ثم ما لا يمكن أن يلحقه أصلا .

وصل ابن خلدون — إذن — إلى ميعار علمى تقاس به صحة التاريخ وتفسر على ضوئه ظواهره ، وهو يعجب من أن السابقين لم يتجهوا هذا الاتجاه من قبل . والمسألة فى نظره لا تعدوا إحدى اثنتين : إما أنهم غفلوا عن هذا الغرض — وذلك احتمال بعيد وإما أنهم كتبوا فيه واستوفوه ، ولكن كتابتهم لم تصل إلينا ، فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى النوع الانسانى متعددون ولم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل .

على أن ابن خلدون يعطى الأمانة العلمية حقها ، إذ يعترف أن بعض مسائل علم العمران البشرى قد تجرى عرضا فى دراسات العلوم الاخرى كالاصول والفقه مثلا ، وربما وقع إلينا القليل من مسائله فى كلمات متفرقة لحكماء الخليقة ، وفى كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزء صالح منه ، وكذلك فى كتاب ابن المقفع . وقد حوم حول هذا الموضوع القاضى أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك ولكن إيراد

هذه النبذ شيء ، والوصول إلى نظام علمى لتماسك الحلقات شيء آخر .

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالنقطة الاولى فى العمران البشرى : وهى أن الإنسان مدنى بطبعه ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاح الحكماء . ذلك أن الله قد خلق الانسان على صورة لا يستطيع أن يستقل معها بجميع حاجته ، من غذاء يقيم أوده ، ومن دفاع عن نفسه ضد الحيوان المفترس . ولا بد فى هذا من اجتماع القدر الكثير من بنى الانسان . ولكى يثمر هذا الاجتماع ويتم العمران لا بد من وازع يدفع بعض الناس عن بعض ، لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم — اذن فحاجة بنى الإنسان إلى الحاكم حاجة طبيعية أيضا ، وإذ ينتهى ابن خلدون من تقرير هذه المبادىء الاولى ينتقل إلى وصف الجزء المعمور من الأرض ، وبيان خصائصه البشرية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، واختلاف أقاليمه فى هذا ، وما يترتب على ذلك من اختلاف فى ألوان البشر وأخلاقهم وعاداتهم وصنائعهم ، وما يعرض لهم من البداوة والحضارة ، وما يمتاز به أهل الحضر فى طباعهم وأحوالهم وعصبياتهم ، وما يحدث لهم من أحوال الملك والمنافسة والتغلب وهنا تصادفنا الاحكام العامة التى يرددها كثير من الناس والكتاب نقلا عن ابن خلدون من مثل قوله:

إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، وقوله : أن الامة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء وأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للاشخاص وأن الظلم مؤذن بخراب العمران .

ويحدثنا ابن خلدون عن النبوة والخلافة والامامة ، وعن مناصب الحكم من سلطان ووزارة وحجابة ، وعن الحروب ومذاهب الامم فى ترتيبها وعن جباية الاموال ونظامها . وحين يصل إلى سياسة الامم يقسمها إلى نوعين : سياسة شرعية وسياسة عقلية ثم يصف السياسة الاسلامية بأن قوانينها مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين فى الاجتماع طبيعية ، ويورد فى هذا المقام نصا مشهورا فى الأدب الاسلامى ذلك هو الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبدالله ابن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وأوصاه فيه بجمع ما يحتاج إليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسية الشرعية ، وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وفى النصف الثانى من المقدمة قسمان كبيران : أحدهما اقتصادى فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ، وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال ، والثانى

ثقافى فى أصناف العلوم الواقعة فى العمران فى عهد المؤلف . وهذا القسم الاخير عظيم الاهمية لطلاب الدراسات الاسلامية والعربية إذ يعرض فيه المؤلف تاريخ صنفى العلوم المعروفة اذ ذاك من نقلية وعقلية . ويذكر أشهر رجالها ودراستها ويؤرخ لتطور العلوم العقلية عند الامم القديمة كالفرس واليونان والمصريين . ويذكر صنيع المسلمين فى ترجمة التراث اليونانى وما عدلوا فيه من اوضاع او اضافوا إليه ، ثم يتناول طريق التأليف والتدريس فى عصره بالنقد ، ويقارن بين مناهج الأمصار الاسلامية فى التعليم ومكان القرآن من نظام كل عصر . وينعى على المؤلفين مادرجوا عليه من تأليف المختصرات المخلة بالتعليم ، وعلى المدرسين جهلهم بطرق التدريس واهتمامهم بشحن اذهان الطلاب بالمعلومات التى تضمنتها كتب الشرح والتنبيهات و ينصح بأن يكون تلقين العلوم للمتعلمين على التدريج وأن يراعى استعدادهم وقوة عقولهم .

هذه نظرات سريعة فى مقدمة ابن خلدون ، ذلك المرجع العربى الخالد ، الذى عالج قضايا الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية وفلسفة التاريخ والحضارة على طريقة منظمة ، تبحث الأصول والقواعد وتفرع عليها الفروع والظواهر وتربط بين المسببات وأسبابها والنتائج ومقدماتها ، وتؤلف من كل هذا أتجاها جديدا لدراسة العمران البشرى يضع أساسه عالم عربى مسلم ، ويسجل التاريخ بفضله بابا من أبوب السبق الفكرى للحضارة العربية والإسلامية .